المتفيقهون

المؤلف:

أ.د. محمد حسن هيتو

مقدمة

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

أكرمتنا بنور العلم، وزينتنا بحلية الفهم، ومننت علينا بكتابك الكريم، وهديتنا إلى صراطك المستقيم، وشرفتنا بإتباع خليلك ومصطفاك، وحبيبك ومجتباك، فكان لنا إلى الحق هادياً وقائداً، ومرشداً ناصحاً ورائداً، فصلِّ اللهم عليه كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكرك الغافلون، أفضل وأزكى وأشمل ما صليت على أحد من خلقك.

وبعد:

فهذه شذرات من خواطر الوجدان، أملاها الواقع الأليم الذي تعيش فيه اليوم أمة الإسلام، بعد أن تفرقت كلمتها، وتشتت جمعها، وضعفت شوكتها، حتى استأسد البغات في أرضها، وصارت بعد العز إلى هوان، وبعد القوة والغلبة إلى ضعف وخذلان.

فنحي الإسلام عن الحكم، ثم نحيت العلوم الإسلامية عن التدريس، وحلت محلها الثقافة الغربية، بماديتها البعيدة ليس عن الإسلام فقط، بل عن الفكر الديني بشكل عام.

ونتيجة لهذا المخطط الإلحادي الماكر، تراجعت العلوم الإسلامية، وتناقص العلماء، وانحسر ظل الإسلام الذي غطى كل جوانب الكون والحياة، في قانونه المتكامل المعصوم، حتى صار مقصوراً في أذهان كثير من الناس على بعض جوانب العبادة، وفشي الجهل في أبناء المسلمين ، حتى وصل لدرجة جهلت فيها بديهيات الإسلام، والأمور المعلومة بالضرورة منه ؟

ودرجت أمتنا على هذا وهو ليس باليسير ، وهي في جزر متواصل لا مد معه .

(1/1)

ودار الزمان دورته ، ودب شيء من يقظة الفكر الإسلامي في صف كثير من أبناء الأمة ، شيباً وشباناً ، رجالاً ونساءً ، وتعالت الهتافات تدعو إلى عودة الإسلام لقيادة الأمة ، بعد أن عصفت بها أعاصير التيارات المادية الملحدة في مهاوي الضياع إذ ظهر لكل عين عوار كل ما نودي به من المبادئ ، والأفكار، والنظم ، ولكن هذه اليقظة التي دبت في أبناء الأمة كانت متأخرة شيئاً ما ، فقدت الأمة فيه كثيراً من أساطين دعوتها ، ودعامة دينها ، من العلماء ورثة الأنبياء ، الذين كان من المفترض أن يتزعموا هذه اليقظة ، ليقودوا الأمة بما ورثوه من العلم ، وشرفوا به من الفضل .

وما تبقى من آثار النبوة في العلماء العاملين كان غير كاف لهذه الزعامة والقيادة ، مما جعل كثيراً ممن لا صلة له بعلوم الشرع _ أو كانت صلته بها سطحية غير كافية للخوض في العلوم الشرعية _ يتبوأ مناصب القيادة في الجيل الناشئ ، ويخوض في دين الله على غير بصيرة ، فيحل الحرام ويحرم الحلال زعما منه أن منصب القيادة الذي وصل إليه يصيره في منصب العالم المجتهد..؟!

وبدأت الفتاوى الآثمة المضللة تنتشر في أوساط الأمة بهذا الطريق، ومن ثم بدأت تضطرب وتتناقض ، لأنها لم تستند إلى قاعدة العلم ، وإنما كانت من إيحاءات الجهل ، مما أوقع الأمة في تناقض مهين ، واضطراب خطير، زاد في ضياعها، بدلاً من أن يكون عاملاً من عوامل يقظتها

ونهضتها .

وبهذا تحقق عَلَمٌ من أعلام النبوة ،إذ قال صلى الله عليه و آله و سلم: ((إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العلماء ، وإنما يقبض العلماء ، فبقبضهم يقبض العلم ، حتى إذا لم يَبْقِ عالما اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغيرِ علم ، فضلوا وأضلوا)).

وانقلب هذا الواقع الخطير إلى تيار ومنهج ، وانقلبت معه الدعوة لإعادة تحكيم الإسلام – عند أرباب هذا المنهج – إلى دعوة للثورة على ما تبقى من آثار الإسلام .

(2/1)

فكانت الدعوة إلى الاجتهاد بمعناه المنحرف ، الذي ينتج عنه العبث بنصوص الشرع ، إذ دعي إليه العالم والجاهل على السواء ، لا بمعناه الصحيح الذي رسم العلماء قواعده ، وضبطوا أوصافه ، بناءً على تعاليم الشرع(1) .

ثم تطورت هذه الدعوة إلى نبذ الفقه الإسلامي الذي تظاهر عليه عشرات الآلاف من كبار علماء الأمة ، ليبنوا به نظام الإسلام الذي حكم العالم الإسلامي أربعة عشر قرنا ، في أعظم ،وأرقى ، وأدق أساليب الاستنباط والتدوين .

فكانت الدعوة إلى هدم هذا الصرح العظيم، القائم على أعظم دعامات العلم ، لبناء هيكل رث يقوم على دعائم الجهل والغرور .

ثم تطورت هذه الدعوة ثانية إلى هجوم على أعلام السلف، من الأئمة المجتهدين، ورميهم بما تنبو عنه أبسط قواعد الخلق في الإسلام، وملء

قلوب الصغار بالأحقاد عليهم . حتى نحى كثير ممن لا خَلاقَ له إلى تصويرهم بالخارجين على نصوص الشرع النابذين لها ....؟!

وقيسوا بالأحبار والرهبان الذين غيروا وحرفوا، وبدلوا وزيفوا، كما قيس المقلدون لهم بأتباع الأحبار والرهبان، حتى إن كثيراً من الغلاة الجهلة كان يخطب الناس ويدعوهم إلى عدم إتباع أعلام الأمة من السلف، بل يجب إتباع سنة رسول لله، وكأن سلف الأمة في أعلام كانوا أعداء لسنة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ويستدل فيما يزعم . بقوله تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ} {التوبة/31} كبُرت كلمة تخرج من أفواههم ..و هل نصر سنة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلا أسلاف هذه الأمة وأئمتها الأعلام فيها ، وهل كنا نعرف هذه السنة لولا أنهم نقلوها بحرصهم وأمانتهم إلينا ، وحفظوها علينا إلا أنها: {لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }{الحج/46} وغلا بعضهم فسمي أعلام الهدى في هذه الأمة بـ " الطواغيت " ؟

---

(1) انظر كتابي: المعجزة القرآنية

ولا أريد التعليق على هذا ، فموضوعات الكتاب تدور حوله ، وحسب المسلم أنه يسمع مثل قالة السوء هذه ليعرف بأبسط ما لديه من آداب الإسلام التي توجب علينا احترام العلم والعلماء – حسبه أن يسمع هذه المقالة ليعرف من هو المتكلم ...

ونظرت في مثل هذه الكلمة ، فإذا بها تحقق عَلَماً آخر من أَعْلام النبوة، إذ

قال صلى الله عليه و آله و سلم : ((لنْ تقومَ الساعةُ حتى يَلْعَنَ آخرُ هذِهِ الأمةِ أوَّلها)) مما افتتح به الإمام ابن عساكر كتابه ((تبيين كذب المفتري)) .

ثم تطورت المناهج المنحرفة في هذه الأمة إلى طور أهم وأخطر من الأطوار السابقة ، إذ صارت إلى التكفير ، والطرد من رحمة الرب ، تعيد بذلك دور الكنيسة في عصور طغيانها واستبدادها ، مما دعا كل عاقل إلى الثورة عليها .

فصار الواحد منهم يكفر الناس أفراداً وجماعات ، ولأبسط الأمور التي كان السلف رضوان الله عليهم يتورعون عن وصفها بالحرام ... علاوةً عن وصفها بالكفر والإلحاد ... بل ربما كُفِّرَ بعض الناس اليوم بالمباحات ... ؟

وصار الإنسان يرمى الشرك .. ويصنف مع الفرق الضالة ، ويُعَرَّفُ مكانَه من الجحيم ،لأنه خالف هوى جاهل من أولئك الجهلة " إذ صار الواجب على كل مسلم أن ينظر من خلال جهل أولئك الناس " وإلاَّ وصف بما ذكرت ، كما كانت الكنيسة تفرض على الناس أن ينظروا إلى الأمور من خلال عقل القَسِّ أو الراهب وإلاَّ حلت عليهم اللعنة ، وطردوا من الرحمة ... ؟

وقد قال صلى الله عليه و آله و سلم ((من قالَ هَلَكَ الناسُ فهو أَهْلَكُهُمْ)) وفي رواية : ((فهو أَهْلَكُهُم)).

وما ظَنُّ الناسِ برجلٍ يقول : إن البخاريَّ – صاحبَ صحيح – ضالٌّ ، لا تعرف عقيدته ، ولا يجوز أخذ العقيدةِ منه ، وأن الرواية عنه كالرواية عن أصحاب البدع والأهواء بشروطها .. ؟! لأنه أوَّل الوجه في قوله تعالى : {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} {القصص/88}

وما ظن الناسِ بأناس يقولون : إن الإمام الطَبَريّ ، والبيهقي ، وابن عساكر ، وابن الصلاح ، والعراقي ، والمِزَّيّ ،وابن حجر والسيوطي ، والنووي ، والعز بن عبد السلام ، والغزالي ن وإمام الحرمين الجويني ، والسبكي وأولاده ، وأولاد الأثير ، والإمام الرازي ، والآمدي ،والبيضاوي ، وجل عظماء أمة الإسلام دون الإسهاب بتعدادهم – يقولون : إنهم من الفرق الضالة وأهل جهنم لأنهم يجيزون التأويل ... ؟

إن سَمْعَ كل عاقل لينبوا عن سماع مثل هذا الضلال والانحراف ، ولولا أنه واقع لظن الناس أنه من خيال الشعراء ،ومبالغة الأدباء .

وليت الأمر وقف عند هذا فقط ، إذاً لقلنا إنها سحابة صيف وتنقشع ، ونزوة عاطفة ستخبو وترتدع ، لبعدها عن المنهج القويم ، والصراط السوي المستقيم ، ولا سيما بإقبال كثير من أولئك الناس على قراءة علوم الشرع ، مما سيرفع من ثقافتهم ، ويوسع أفقهم ، ويجعلهم هم أنفسهم يسخرون من أنفسهم عندما كانوا يقولون مثل هذا الكلام الذي لا يصدر إلاَّ عن معين الجهل ، كما وقع لكثير منهم عندما خالط العلماء ، وتلقى المعرفة من مصادرها الحقيقية بصدق نية وصفاء .

ولكن الأمر تجاوز كل هذا إذ انقلب إلى ثورة صريحة على كل العلوم ، والقوانين، والضوابط ، والمصطلحات الإسلامية ، والى تهكم علني – لا حياء معه – بإرث النبوة من علماء الأمة ، قديمها وحديثها، فقامت دعوة تطالب بالثورة على كتب الفقه الصفراء ، وتطالب بفقه جديد .

وقامت دعوة تطالب بالثورة على أصول الفقه الإسلامي ، وتدعوه إلى

تدوين أصول جديدة للفقه .

وقامت دعوة تدعو إلى الثورة على كتب التوحيد ، وتعلن صراحة أن الإيمان لا يحتاج إلى دليل وبرهان ، والله أكبر من أن يقام على وجوده الدليل ، فمتى غاب حتى يحتاج إلى الإظهار ... ؟

(5/1)

وقامت دعوة تدعو إلى تأصيل جديد لعلوم الحديث ، يكون مبنياً على قاعدة العقل، لا على ما اعتمدته أمة الإسلام خلال تاريخها الطويل في ضبط حديث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ومعرفة صحيحه من ضعيفه ،ومقبوله من مردوده .

وانبتت عليها دعوة أخرى تدعو إلى تطهير صحيح البخاري ومسلم ، وإعادة النظر فيهما بناء على قواعد الحديث الجديدة التي تتلاءم مع العقل المادي المعاصر ، لإبعاد ما يوجد فيهما مما يخالف العقل في زعمهم .

وإذا امتدت يد العبث إلى البخاري ومسلم ، وهما الصحيحان اللذان أجمعت الأمة على صحة ما فيهما ، وتلقتهما بالقبول كما تلقت كتاب الله ، فأن تمتد إلى غيرهما من دواوين السنة من باب أولى .

ولذلك قامت دعوة صريحة إلى إيجاد ديوان جديد للسنة ،بناءً على قانون العقل الذي ذكرناه ... ؟

بل نادي بعضهم صراحة بوجوب التخلي عن كتب السنة التي بين أيدينا والاكتفاء بالقرآن، لأنه متواتر ، والسنة أحادية، قد امتدت إليها يد العبث – فيما زعم القائل – ؟

وتجرأ أحدهم على أعظم أصل وأقوى حصن من حصون الإسلام وهو

الإجماع ، فهدمه ، ولم يكتفِ بهذا .. ، بل زعم أن الإجماع بدعة ابتدعت في الإسلام ... (2)

فاتهم كل أمة محمد صلى الله عليه و آله و سلم بمفسريها ، ومحدثيها ، وفقهائها ، وأصولييها ، ولغوييها، من السلف والخلف بالابتداع ، لأن الكل يقول بالإجماع الأصولي ، ويبنى عليه ، ويعتبره من أعظم حصون التشريع وقلاعه .

وآخر ما وصل إليه الميل والانحراف، والغلو والإجحاف ، أن صرح أحد أقواس صغيره ((بأن الفقهاء لم يفهموا دينهم، وأن العلماء عقبة في طريق الدعوة))(3).

وأقول : نعم ، إنهم عقبة في طريق دعوته التي ملأ بها الضلال روعه ، ونفثها الشيطان على لسانه ، ولذلك يحق له أن يثور عليهم ، ويتذمر منهم ، وهذا هو دأب المنحرفين مع الدعاة المصلحين ، على مرّ التاريخ .

(6/1)

وأما دعوة الحق التي نزل بها الوحي من السماء ، وتلقتها أمة الإسلام عن خاتم الرسل والأنبياء ، فالعلماء هم حفظتها ونقلتها ، وهم عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم ورّاثها ، إذ خصهم بهذا الشرف الجليل ومنحهم ذاك الوسام النبيل ، وما كان لبشر أن يضع من رفعه الله ، {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ }{المجادلة/11}

ولا أريد أن أستطرد في ذكر مثل هذه الدعوات الهدامة ، لأنها قد كثرت ، وتمادى خطرها وصارت وراءها مؤسسات تحميها ، وتروج لها ، وتهول من شأنها ، لتجعل كل مصلح من مصلحي هذه الأمة ،وكل محافظ على

شرعها وعلومها ، في حيرة من أمره ، يتمثل قول الشاعر :

اتسع الخرقُ على الراقعِ

ولكن هذه الدعوات رغم كثرتها ، وتعدد مناهجها، وكثافة الدعاية لها وانسياق الكثير من أبناء الأمة ، – بسبب ما فرض عليهم من الجهل بدينهم – وراءها ،رغم هذا كله هي أوهى من بيت العنكبوت، سرعان ما تتهادى وتسقط مع أول خيط من خيوط النور التي تنبعث من مشكاة العلم .

وإننا لعلى يقين بأن الله تعالى سوف يحبط كل مخططاتها ،ويكشف زيفها وعوارها، صوناً لدينه، وإمضاءً لوعده:] إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [ ]الحجر/9[.

ولكن هذا لن يكون بالأمانيّ والأحلام ، وإنما يكون بالعمل ، بضابط من الجد والنظام ، عن طريق نشر العلوم الشرعية واللغوية، من مصادرها الأصيلة، على أيدي وُرّاثِ النبوة ، العاملين بتعاليمها ، المتفانين من أجل نشرها وصيانتها ، وتبليغها .

(7/1)

وهذه المقالات التي بين أيدينا ، ليست علاجاً لهذه المشكلة ، فالعلاج كما ذكرت يكون عن طريق نشر العلوم الشرعية واللغوية بين المسلمين ، وإنما هي مجموعة من المقالات الإنشائية التي أملاها الواقع الذي يعيش به كثير من الناس ، ولا سيما أولئك الذين يدعون الاجتهاد ، ولكنهم لم يعرفوا مبادئ العلوم بعد فالعلم عندهم شيء، والإجهاد شيء آخر، فهم كما أقول فيهم : لا يدعون العلم وإنما يدعون الاجتهاد، وكلما زاد جهل الواحد منهم

كلما احلولكت ظلمات الجهل حول عقله إلى أن يتفجر بالفظائع والعجائب .

هذا وسيتوهم بعض من يصيبهم هذا الكلام أنه موجه للرد عليهم، أو الخوض معهم، وهذه أوهام وأحلام يمليها عليهم الغرور الناتج عن الجهل المركب .

إننا حينما نتكلم في مسائل العلم ، إنما نبتغي وجه الله ، في بيان الحق وإزهاق الباطل ، وهتك براقع الزيف والضلال .

فأهل العلم حينما يردون أو يناظرون، إنما يردون على أمثالهم من أهل العلم، ويناظرونهم، ((فلا يعرفُ الفضلَ لأهل الفضل إلاَّ أهلُ الفضل)) .

والرد في هذه الحالة يكون لإظهار الحق وبيانه، لا للمجاراة والمماراة، فليس هذا من دأبِ أهل العلم وورثةِ النبوة .

(8/1)

وأما الجهلة والمتفيهقون فيترفع العلماء عن نقاشهم، والخوض معهم، لأن الخوض معهم لا يفضي إلى نتيجة، إذ لا توجد بين الاثنين قاعدة مشتركة يرجعان إليها ، فالعالم يرجع إلى العلم والقواعد التي تملي عليه ما يقول، وأما الجاهل فيرجع إلى العصبية ، والهوى ، ولذلك لا يلتقيان، وغالباً ما تكون الغلبة للجاهل ، إذ يجمع عليه جهله ما يتنزه عنه العلماء ، ولذلك قال الإمام الشافعي : ((ما ناظرت عالماً إلاَّ وغلبته ، وما ناظرني جاهل إلاَّ وغلبني))، ولذلك يعرض العالم عن الجاهل امتثالاً لقول الله :] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا [ ]الفرقان/63 [فهم يقولون ما يعتقدونه من الحق ، قبله أولئك المتفيهقون أو رفضوه ، لأنه لا يؤبه لهم ، كما قال

الشاعر :

عذرت البُزْل إذ هي خاطرتني .... فما بالي وبال ابني لبون

أو كما قال الآخر :

وابن اللبون إذا ما لزّني قَرَن .... لم يستطع صولة البزل القناعيسِ

لقد هجا بشار بن بُرْد جريراً ، طمعاً في أن يرد عليه جرير ، ويدخل حلبة الصراع مع الفحول الثلاثة ،جرير ، والفرزدق ، والأخطل ،فيشتهر شهرتهم، لكن جريراً لم يأبه له ، ولم يرد عليه،لأنه وجده دون هذه المنزلة ،فبكى بشار ،فقيل له: ما يبكيك يا أبا معاذ ؟ فقال عدم هجاء جرير لي ،فإنه لو هجاني لصيرني أشعر الناس .

ولمثل هؤلاء قال صريع الغواني مسلم بن الوليد :

أمّا الهجاءُ فَدَقَّ عرضُكَ دونه .... والمدْحُ عنك كما علمتَ جليلُ

وأخيراً .. إن واجباً عظيماً يتوجب على أهل العلم القيام به في هذا العصر ، الذي ارتفعت فيه رايات الجهل بعلوم الشريعة ،ونكست أعلام العلم ، حتى صار كالأطلال .

(9/1)

إن واجباً عظيماً يتوجب عليهم جميعاً ، ألا وهو بذل كل ما في وسعهم وطاقتهم من أجل نشر العلوم الشرعية واللغوية بكل فروعها في أوساط أبناء الأمة ، وبكل الوسائل المتاحة في المساجد ، والمدارس ، والبيوت ، وكل مكان يحصل فيه اجتماع ،ليحي هذا الدين بعلومه ، ولتمتد ظلال الوحي والنبوة على الأجيال القادمة ..، فما الوحي إلاَّ هذه العلوم ، وإن امتدادها امتداد له وللنبوة ، فالعلماء ورثة الأنبياء ،وبقدر ما يتحقق به الإنسان من

العلم ينال من إرث النبوة ،وبقدر ما ينشر من العلوم ينشر آثار النبوة .
فإذا ما استضاء الناس بنور العلم تبددت من حولهم الظلمات ، وزالت الشبهات، فإن رفع أعلام العلم تنكيس لرايات الجهل ، وإن مجيء الحق إزهاق للباطل ..

سددنا الله بتوفيقه لنصرة دينه ،وإحياء شرعه ،وأرشدنا إلى الصواب في القول والعمل ، وجنبنا يهديه مواطن الزيغ ، والزلل ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الكويت 5 ذو الحجة 1410 هـ الدكتور محمد حسن هيتو

27 حزيران 1990 م

---

(1) انظر كلامنا على هذا الموضوع في مقدمتنا لكتاب الإجهاد وطبقات مجتهدي الشافعية .

(2) انظر مجلة كلية الشريعة بجامعة الكويت العدد السابع ص 345 .

(3) انظر مجلة المجتمع الكويتية .

أثر الجهل في الأمة والمجتمع

إن كثيراً من الناس يؤتى من قبل جهله ، فيما يخيل إليه من أن هذا الجهل علم يتيه به على رؤوس البشر .

وهكذا يفعل الجهل بصاحبه ، يخيل له الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، ويزخرف له الخطأ حتى يظهره في عينيه في أعلى درجات اليقين والصواب .

ولذلك تجد الجاهل حينما يتكلم يتكلم بغرور وأبهة واستعلاء ، يتيه على كل من يتكلم معه ، لما يوحيه إليه جهله ، مع أنه ربما كان في أصغر من يسمع منه من يربو عليه آلاف المرات في العلم والمعرفة .

كما يخيل إليه جهله أن الناس عالمهم وجاهلهم ينظر إليه نِظْرة الإعجاب لما يرى من دهشتهم التي بدت على وجوههم ، ولكن ليس إعجاباً مما يقول ، وإنما تعجباً منه كيف يهذي بما يقول .

وهكذا سارت الحياة قديماً وحديثاً ، وقد قال المتنبي :

وإني رأيت الضر أسهل منظراً وأهون من مرأى صغير به كبر

بينما تجد العالم كلما ازداد في العلم ثباتاً ، كلما ازداد بين الناس تواضعاً ، وكلما ازداد بينهم تواضعاً ، ازداد في أعينهم رفعة وبينهم وقاراً .

فيأبى الجهل إلاَّ أن يضع صاحبه بين الناس وإن ترفع بجهله عليهم ، واستسلمنا له ، وأخذنا نطبع أنفسنا لنحملها على قبوله والرضوخ له ، وكأننا نريد تكريسه في أمتنا .

فصرنا شيعاً وأحزاباً ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وضربت الأنانية أطنابها في مجتمعنا – الذي كان يعتبر أعظم المجتمعات الإنسانية في حضارته الاجتماعية وتكافله وتضامنه – وصار كل واحد منا لا يلوي إلاَّ على نفسه ،ولا يبحث إلا عن مصلحته .

وامتلأت قلوبنا بالأحقاد ، حتى صار الواحد منا يحمل من الحقد على الآخرين من أبناء دينه وعقيدته مالا يحمله على أعداء أمته من اليهود والصليبين ، لخلاف فكري ، أو اتجاه حزبي ، أو رغبة في الزعامة والقيادة .

وصرنا بدلاً من أن نلقن الناس مبادئ الحق التي سمونا وسنسمو بها ،

صرنا نلقنُهم كيف يحترسون من زيد ، ويحقدون على عمرو ، ويتجنبون فلاناً ، ويطعنون بفلان .

(11/1)

وانقلبنا من أمة قائمة في الليل عابدة ، صائمة في النهار مجاهدة ، إلى أمة نائمة بالليل غافلة ، وعابثة في النهار هازلة، نمضي ليلنا في النقاش هناك كلام ساقط وهو" والجدل ، وفي أمور ربما فرغت أمتنا منها منذ قرون، بما نضيفه إليها من غيبة ونميمة ووقيعة في الآخرين ... وننام عن صلاة الفجر التي تعتبر الفيصل بين النفاق والإيمان ، ثم نزعم أننا كنا نجاهد من أجل الدعوة .

إنه لشيء محزن أن نسمع عن بعض المساجد أنها لا تقام فيها صلاة الفجر لولا وجود المؤذن والإمام ، وعن معظم المساجد أنها لا يكتمل فيها صف واحد من الذين كانت تغص بهم في صلاة المغرب وهم يستعدون لقضاء سهرة الجهاد من أجل الدعوة ...

وإذا كانت هذه حال من يرتاد المسجد في بعض الأوقات ، فما هي حال من لا يرتاده أبداً ... أو لا يصلي ... أو لا يعرف الصلاة ... ؟

وزاد الأمر على هذا حينما أخذ يكفر بعضنا بعضاً ، ويفسق بعضنا بعضاً ، ويطرد بعضن، بعضنا الآخر من رحمة الله التي وسعت كل شيء إلاَّ أنها ضاقت عند أصحاب الجباه الضيقة عن أن تسع من خالف جهلهم ... وأما الطامة الكبرى فهي أننا عزفنا عن الدين الذي ندعو إليه ، ونقاتل من أجله ، بعزوفنا عن علومه ومعارفه ... حتى صرنا متدينين ولكننا نجهل الدين الذي نتدين به ، ودعاة ولكننا لا نعرف الدعوة التي ندعو إليها ، وزاد

الأمر على هذا فتجر أنا على الفتوى من غير علم وتخبطنا فيها حتى أحللنا كثيرا مما حرم الله وأحل ، ولم يسعنا هذا فانطلق بعض الناس كالذئاب الجائعة ... ولكن لا لينهش أعداء أمته، بل لينهش عظماءها الذين شَرُفَت بهم الأرض، وانتشر بجهودهم الدين، فكنا أكبر معاول الهدم لما تبقى من آثار هذه الأمة العظيمة ... فكفينا أعداءنا ما سعوا له من غاية وتسابقوا إليه من هدف .

وهكذا ينقلب الإنسان بجهله إلى أداة تدمير وإفساد ، بدلاً من أن يحقق الغاية التي من أجلها استخلف في الأرض وهي البناء والإرشاد .

* * *

(12/1)

تورع سلف الأمة عن الفتوى

لقد سئل الإمام مالك بن أنس عن أربعين مسألة في دين الله ، فقال في ست وثلاثين منها : لا أدري، قال له السائل : ماذا أقول لقومي إذا رجعت إليهم، وكأنه استكبر هذا القول من مالك ... !

فقال له مالك : قل لهم : إن مالك بن أنس يقول : لا أدري ...

وتوقف الإمام محمد بن إدريس الشافعي – وهو ناصر الحديث ، وواضع علم الأصول ، والجامع بين طريقتي أهل الرأي والأثر – توقف في سبع عشرة مسألة في الفقه ، فلم يرجح فيها شيئا ، لتزاحم الأدلة ، وتوارد الإحتمالات ، وقد عُد هذا من ورعه وتقواه ، فيما عُد من مناقبه .

ونهى الإمام الأجل أحمد بن حنبل – وهو أمير المؤمنين في الحديث ، يحفظ ألف ألف منه – نهى تلاميذه عن تدوين فقهه ، حتى لا يلزمهم رأيه

فعسى أن يوجد فيهم من هو أفقه منه يستنبط كما استنبط ، ويفهم كما فهم .

وكانت المسألة تعرض على جمع من العلماء ، وكل منهم يحيلها على صاحبه حتى ترجع إلى الأول منهم ، يشفق كل واحد منهم من أن يتكلم بالفتوى في دين الله وهناك من هو أولى منه بها ، وخشية الخطأ فيها، على أنهم جميعاً كانوا حفاظاً للحديث ، أرباباً للفكر ، أئمة في علوم الشرع .

بل كانوا سراً من أسرار الله في هذا الدين العظيم ، بذلوا من أجله حياتهم ، واستنفدوا في سبيله طاقتهم ، فحفظه الله بهم، تحقيقاً لوعده ، وإمضاءً لأمره، ولولاهم لكنا اليوم في جهل كامل بديننا.

فجزاهم الله عنا أحسن الجزاء ، وأحسن إليهم ، إذ نقلوا إلينا هذا الدين أصولاً وفروعاً ، نصوصاً واستنباطاً ، دون أن يكون لهم من أجر سوى ما أمّلوه من رحمة ربهم ، ونعم الأجر والثواب .

* * *

(13/1)

انقلاب الموازين العلمية

ودالت دولة الفقه والفقهاء ، وزالت معالم العلم والعلماء ، وأقصي شرع الله عن واقع الحياة ، وغيرت مناهج التعليم في الأمة ، حتى صار الطالب يتخرج من الجامعة وهو لا يلم بلغة دينه وقومه ، ولا يعرف عن تاريخ أمته جزءاً مما يعرفه عن تاريخ عدوه ، وصار يعرف الكثير عن مشاهير الغرب والشرق ، ولكنه لا يعرف القليل عن مشاهير المسلمين ، الذين شرف الوجود بهم، وتعدت علومهم وآثارهم لكل أمم الأرض علاوة عن أمتهم حتى

صاروا كالأساطير في أحاديث البشر ، وكانوا للعالم عبرة من العبر، وهكذا قلت المعرفة ، وفشا الجهل ، وظهر الغرور ، واتبع الهوى .
فغيرت المعايير ، وبدلت الموازين ، فَأُتمن الخائن ، وخُوِّنَ الأمين ، وسُئِلَ الجاهل، وتُرِكَ العالم ، يفتي الفقيه فلا تقبل فتواه ، ويتتطع الجاهل فيتسابق أمثاله في هواه ... يَضِل ويُضِل .

* * *

ضابط المحدث والفقيه بين الأمس واليوم

لقد صار الإنسان يسمى محدث الديار، وعالم الأمة، وإمام الأئمة، ومجدد الدين، والفقيه الملهم ، إذا حفظ على الناس بضعة أحاديث من أحاديث الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، يموه بها على الناس ، فيكسو الحقَّ ثوب الباطل ، والباطل ثوب الحق .
بينما كان الإنسان في عصور العلم الذهبية لا يسمى محدثاً – مع أنه قرأ البخاري، ومسلماً ، وسنن أبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، ومسند أحمد ، البيهقي – إلاَّ إذا ولج الجمل في سم الخياط ، كما قاله الإمام تاج الدين السبكي في كتابه " معيد النعم ومبيد النقم " .

(14/1)

قال : وإنما المحدث من عرف الأسانيد والعلل ، وأسماء الرجال ، والعالي والنازل، وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون ، وسمع الكتب الستة ، ومسند أحمد ، والبيهقي ، ومعجم الطبراني ، وضم إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية ، هذا أقل درجاته فإذا سمع ما ذكرناه ، وكتب الطباق ، ودار على الشيوخ ، وتكلم في العلل ، والوفيات ، والمسانيد ، كان في

أول درجات المحدثين، ثم يزيد الله من يشاء ما شاء .ا هـ .

فإذا كان هذا حدَّ المحدث عند المتقدمين ، فما هو حد الحجة ، أو أمير المؤمنين في الحديث ، وماذا يقول أدعياء العصر حينما يجعلون من أنفسهم حكماً " على " و " بين " أولئك العظماء وضابط الفقيه كضابط المحدث إن لم يكن أشدَّ .

فما كان الناس في الماضي يطلقون كلمة الفقيه على كل عارف لمسائل الفقه ، حافظٍ لمتونه ، قادرٍ على البحث عن الفتوى، وإنما كانوا يطلقون الفقيه على من عرف طرق الاستنباط، وتمرس بها ، وعرف كيف يستعمل الأدلة ويرجح بينها ، وعرف الأشباه والنظائر والفروق والموانع ، وأتقن الفقه وقواعده وأصوله وعرف مواطن الخلاف والوفاق ، وتمرس بلغة العرب شعرِها ونثرها .

فإذا بلغ الإنسان هذا فإنه يكون قد وصل إلى أول درجات الفقه ، ثم يزيد الله بعد ذلك من يشاء ما يشاء .

وإذا كان هذا ضابط الفقيه،فما هو ضابط مجتهد الفتوى،أو مجتهد المذهب،أو المجتهد المطلق (1).

إنه للأمر الذي خفي عن الأذهان ، وغاب عن الواقع ، والذي يجب أن يعرفه أهل العصر للتمييز بين العالم والجاهل ، والحق والباطل .

ومن أراد فهم هذا فليسمع قول أمير المؤمنين في الحديث الإمام أحمد بن حنبل : ((كانت أقضيتنا بأيدي أصحاب أبي حنيفة ما تنزع ، حتى جاء الشافعي فنزعناها منهم))، وقوله : ((لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث)) .

(15/1)